إحياء علوم الدين

للإمام الغزالى

مع مقدمة فى التصوف الإسلامى ودراسة تحليلية لشخصية الغزالى
وفلسفته فى الإحياء

بقلم
الدكتور بدوى طبانه
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم
بجامعة القاهرة

الجزء الثالث

فيها كتب قيمة
مكتبة محمد بن إسماعيل حزين المقدسي
From the Library of
Muhammad I. Hozien

مكتبة ومطبعة "كرياطه فوترا" سماراغ

على التغير قوة الشهوة فانها أقدم وجودا إذ الصبي في مبدإ الفطرة تخلق له الشهوة ثم بعد سبع سنين ربما يخلق له الغضب وبعد ذلك يخلق له قوة التميز والسبب الثاني أن الخلق قد يتأكد بكثرة العمل بمقتضاه والطاعة له وباعتقاد كونه حسنا ومرضيا والناس فيه على أربع مراتب : الأولى وهو الانسان الغفل الذي لايميز بين الحق والباطل والجميل والقبيح بل بقي كما فطر عليه خاليا عن جميع الاعتقادات ولم تستتم شهوته أيضا باتباع اللذات فهذا سريع القبول للعلاج جدا فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد وإلى باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان . والثانية أن يكون قد عرف قبح القبيح ولكنه لم يتعود العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعاطاه انقيادا لشهواته وإعراضا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول إذ قد تضاعفت الوظيفة عليه إذ عليه قلع مارسخ في نفسه أولا من كثرة الاعتياد للفساد والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن انتهض لها بجد وتشمير وحزم . والثالثة أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة وأنها حق وجميل وتربى عليها فهذا يكاد تمتنع معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال . والرابعة أن يكون مع نشئه على الرأى الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ويباهى به ويظن أن ذلك يرفع قدره وهذا هو أصعب المراتب وفي مثله قيل ومن العناء رياضة الهرم ومن التعذيب تهذيب الذيب والأول من هؤلاء جاهل فقط والثاني جاهل وضال والثالث جاهل وضال وفاسق والرابع جاهل وضال وفاسق وشرير ، وأما الخيال الآخر الذى استدلوا به وهو قولهم إن الآدمى مادام حيا فلاتنقطع عنه الشهوة والغضب وحب الدنيا وسائر هذه الأخلاق فهذا غلط وقع لطائفة ظنوا أن المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها وهيهات فان الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ولو انقطعت شهوة الوقاع لانقطع النسل ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه مايهلكه ولهلك ومهما بقي أصل الشهوة فيبقى لامحالة حب المال الذى يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية بل المطلوب ردها إلى الاعتدال الذى هو وسط بين الإفراط والتفريط والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية وذلك بأن يخلو عن التهور وعن الجبن جميعا وبالجملة أن يكون في نفسه قويا ومع قوته منقادا للعقل ولذلك قال الله تعالى ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ وصفهم بالشدة وإنما تصدر الشدة عن الغضب ولو بطل الغضب لبطل الجهاد وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية والأنبياء عليهم السلام لم ينفكوا عن ذلك إذ قال صلى الله عليه وسلم «إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر (١)» . «وكان إذا تكلم بين يديه بما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان عليه السلام لايخرجه غضبه عن الحق (٢)» وقال تعالى ـ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ـ ولم يقل والفاقدين الغيظ فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لايقهر واحد منهما العقل ولايغلبه بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما

---

(١) حديث إنما أنا بشر أغضب كما يغضب البشر م من حديث أنس وله من حديث أبي هريرة إنما محمد بشر يغضب كما يغضب البشر (٢) حديث أنه كان يتكلم بين يديه بما يكرهه فيغضب حتى تحمر وجنتاه ولكن لايقول إلا حقا فكان الغضب لايخرجه عن الحق الشيخان من حديث عبدالله بن الزبير في قصة شراج الحرة فقال لأن كان ابن عمتك فتلون وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهما من حديث أبي سعيد الخدري وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه لهما من حديث عائشة وما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله وللمسلم ماينال منه شيء قط فينتقم من صاحبه الحديث .

دلوك في إناء أخيك» وقال سعد بن عبد الرحمن الزبيدى يعجبنى من القراء كل سهل طلق مضحاك . فأما من تلقاه بالبشر ويلقاك بالعبوس كأنه يمن عليك فلا أكثر الله في القراء مثله ومن أخلاق الصوفية السهولة ولين الجانب والنزول مع الناس إلى أخلاقهم وطباعهم وترك التعسف والتكلف وقد روى في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار وأخلاق الصوفية تحاكى أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان يقول عليه الصلاة والسلام «أما إنى أمزح ولا أقول إلا حقا» روى «أن رجلا يقال له زاهر

ممكن وهو المراد بتغيير الخلق فانه ربما تستولى الشهوة على الانسان بحيث لايقوى عقله على دفعها على الانبساط إلى الفواحش وبالرياضة تعود إلى حدّ الاعتدال فدل أن ذلك ممكن والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لاشك فيها والذى يدل على أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين أن السخاء خلق محمود شرعا وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال ـ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ـ وقال تعالى ـ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ـ وكذلك المطلوب فى شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعالى ـ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ـ وقال فى الغضب ـ أشداء على الكفار رحماء بينهم ـ وقال ﷺ «خير الأمور أوسطها(١)» وهذا له سر وتحقيق وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم قال الله تعالى ـ إلا من أتى الله بقلب سليم ـ والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضا من عوارض الدنيا وشرط القلب أن يكون سليما منهما أى لايكون ملتفتا إلى المال ولا يكون حريصا على إنفاقه ولا على إمساكه فان الحريص على الانفاق مصروف القلب إلى الانفاق كما أن الحريص على الامساك مصروف القلب إلى الامساك فكان كمال القلب أن يصفو عن الوصفين جميعا وإذا لم يكن ذلك فى الدنيا طلبنا ماهو الأشبه لعدم الوصفين وأبعد عن الطرفين وهو الوسط فان الفاتر لاحار ولابارد بل هو وسط بينهما فكأنه خال عن الوصفين فكذلك السخاء بين التبذير والتقتير والشجاعة بين الجبن والتهور والعفة بين الشره والجمود وكذلك سائر الأخلاق فكلا طرفى الأمور ذميم هذا هو المطلوب وهو ممكن ، نعم يجب على الشيخ المرشد للمريد أن يقبح عنده الغضب رأسا ويذم إمساك المال رأسا ولا يرخص له فى شىء منه لأنه لو رخص له فى أدنى شىء اتخذ ذلك عذرا فى استبقاء بخله وغضبه وظن أن القدر المرخص فيه فاذا قصد قطع الأصل وبالغ فيه ولم يتيسر له إلا كسر سورته بحيث يعود إلى الاعتدال فالصواب له أن يقصد قلع الأصل حتى يتيسر له القدر المقصود فلا يكشف هذا السر للمريد فانه موضع غرور الحمقى إذ يظن بنفسه أن غضبه بحق وأن إمساكه بحق .

(بيان السبب الذى به ينال حسن الخلق على الجملة)

قد عرف أن حسن الخلق يرجع إلى اعتدال قوة العقل وكمال الحكمة وإلى اعتدال قوة الغضب والشهوة وكونها للعقل مطيعة وللشرع أيضا وهذا الاعتدال يحصل على وجهين : أحدهما بجود إلهى وكمال فطرى بحيث يخلق الانسان ويولد كامل العقل حسن الخلق قد كفى سلطان الشهوة والغضب بل خلقتا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع فيصير عالما بغير تعليم ومؤدبا بغير تأديب كعيسى بن مريم ويحيى بن زكريا عليهما السلام وكذا سائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ولا يبعد أن يكون فى الطبع والفطرة ماقد ينال بالاكتساب فرب صبى خلق صادق اللهجة سخيا جريا وربما يخلق بخلافه فيحصل ذلك فيه بالاعتياد ومخالطة المتخلقين بهذه الأخلاق وربما يحصل بالتعلم والوجه الثانى اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وأعنى به حمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطى فعل الجواد وهو بذل المال فلا يزال يطالب نفسه ويواظب عليه تكلفا مجاهدا نفسه فيه حتى يصير ذلك طبعا له ويتيسر عليه فيصير به جوادا وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع وقد غلب عليه الكبر فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف إلى أن يصير ذلك خلقا له وطبعا فيتيسر عليه وجميع الأخلاق المحمودة شرعا تحصل بهذا الطريق وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذا فالسخى هو الذى يستلذ بذل المال الذى يبذله دون الذى يبذله عن كراهة والمتواضع هو الذى يستلذ التواضع ولن ترسخ

(١) حديث خير الأمور أوسطها البيهقى فى شعب الإيمان من رواية مطرف بن عبد الله معضلا .

ابن حرام وكان بدويا وكان لا يأتى إلى رسول الله إلا جاء بطرفة يهديها إلى رسول الله فجاء يوما من الأيام فوجده رسول الله فى سوق المدينة يبيع سلعة له ولم يكن أتاه ذلك اليوم فاحتضنه النبى عليه السلام من ورائه بكفيه فالتفت فأبصر النبىّ عليه السلام فقبل كفيه فقال النبى عليه السلام من يشترى العبد فقال إذن تجدنى كاسدا يارسول الله فقال ولكن عند الله ربيح ثم قال عليه السلام لكلّ أهل حضر بادية وبادية آل محمد زاهر بن حرام ». وأخبرنا أبو زرعة طاهر بن الحافظ المقدسى عن أبيه قال